أنّ نظراتي حاصرت إحداهنّ ـ تلك الّتي تجلس بجانب شابّ يقرأ جريدة بالفرنسيّة ويمرّر من حين لآخر يده على فخذه. أصبحت كمن يرشف حليباً باللّويزة: مرّة بعد مرّة يعود إليه. وربّما أحسّت هي الأخرى بالعيون المتلصّصة عليها، فتشاغلتْ بالنّظر إلى المارّين خارج القاعة (هكذا لتضيّعني!).. ثم (من المكان ـ القنت الذي يقابلها)وجدتُني (وبدون أن أتزحزح قدر بوصة) أدعوها إلى الجلوس في مقهى المحطّة الفوقي.. الدرجات الرخاميّة صعدناها معاً. هكذا وبدون أن ندع للخجل الّذي يُصطنع في مثل هذه المناسبات فرصته الذهبيّة، قلت لها اسمي.. لم تقل شيئاً بل طلبتْ لنفسها شاياً باللّيمون. وجاءني الجرسون بقهوة شكولاطيّة. بين رشفة وأخرى وجدت نفسي أسرح بخيالي.. بعيداً: من نافذة الغرفة.. كانت أشجار النّخيل تنتصب أمامي بخيلاء.. بينما كنّا ـ أنا وهي ـ متشابكي الأيدي.. كأنّنا نقول لبعضنا: «اليوم لنا والغد أيضاً». وبحسّي الآدمي.. وجدت ـ حينما كلّمتني عن المرأة الّتي تمشي على الرّصيف المقابل ـ أنّنا نمارس الهواية نفسها.. «شوف هذيك! الأنف نابت فين ولا كوپ فين!». «شوفي!» قلت لها: «زوجة فلان ترفع يدها دائماً وهي تتكلّم.. أنا لا أحب هذا النوع من النّساء..» قالت: «هذا رأيك..» ثم أردفت: «كلّ شيء يحدث هنا.. يناقش هنا..» وأشارت بأصبعها إلى سجّادة الغرفة.. ضحكنا، ثم تساقطت عليّ بجذعها ووشوشت في أذني شيئاً.. لم أصدّق.. لم أصدّق أنا! سأصبح في يوم ما أبا.. ياه! قالت: «علينا أن نختار للمولود الجديد اسماً..». قلت: «.. من الآن فصاعداً!». نطقتها بحركة ممثّل مسرحي مقتدر.. «لكن، انتظري!». بحثت في الأسماء الّتي أعرفها فوجدتها مكرورة ورتيبة، حتّى أنا أحمل اسم جدّي الّذي مات في عزّ شبابه، وأبي يحمل اسم جدّه.. وهكذا قلت لها مرّة أخرى: «.. أتقزّز من الأسماء العصريّة». عضّت على أصبعها. وكمن يفكّر في حلّ خطير، قالت: «وإن كان المولود بنتاً..». «نعم! وإن كان بنتاً». قلتها بفتور وكنت كالّذي نسي أداء ثمن ركوب الحافلة وقد ضبطه المراقب. «.. سنسمّيها.. دعد.. خولة.. ناصرة.. زينب.. ياه! لن أنتهي أبداً من السّرد.. اللائحة طويلة.. ولن توافقي أبداً!» في الحقيقة (وهذا اعتراف جزئي منّي) فشلنا معاً في تحديد جنس المولود وحتّى اسمه... وبحركة مباغتة قمت من المكان ـ الزّاوية الّذي أجلس فيه. خطوت بضع خطوات.. كانت هي تسرع في مشيتها.. وتمرّر ـ من حين لآخر ـ يدها اليسرى على تنّورتها الرّماديّة ـ سلمت يسراها! حاولت اللّحاق بها لأقول لها «إنّي اخترت(..) اسماً للمولود الجديد». لكن كانت ثمّة عربة ابتلعتها، وناس تنزل وناس تصعد وناس تهرول. تمنّيت أن ألحق بها بالرغم من أنّه لم يكن في نيّتي أن أركب قطار البيضاء.. لكن تعبي المزمن جعلني أغيّر رأيي وأعزف عن تغيير الاتّجاه أخيراً.

القنيطرة ـ المغرب

الحَيْلُ

خيري عبد الجواد

كان راجعاً من عمله وقت الظّهيرة حين دهمه الكلب. هل فوجئ بما حدث؟ نعم، فقد كان بحكم عاداته اليوميّة يمرّ عليه صباحاً ومساءً فيجده جالساً رابضاً بشكله المهيب أمام بيت الجيران. سنون طويلة مرّت على جلوسه هكذا منذ أن جاء إلى الحارة جرواً صغيراً يتمسّح بأرجل المارّة فيعاملونه بحنوّ كطفل من حقّه الحصول على بعض التّدليل حتّى يبلغ ويكبر. مَنْ الّذي أتى به؟ ومن أين جاء؟ لا أحد يدري، بل يعتقد البعض أنه ولد في الحارة من أمّ وأب كانا يعيشان فيها، في هذا البيت تحديداً، وأنّ هذا الكلب هو نتاج حادثة شهيرة يعرفها الكبار وكانوا وقتها صغاراً. فقد رأوا الأمّ تعوي وتنبح، وحين ذهبوا إليها وتجمّعوا حولها لمعرفة السّبب شاهدوا الأمّ تخرج من المنزل وقد التصقت مؤخّرتها بمؤخّرة أحد الكلاب الغريبة عن الحارة، بينما الكلب الآخر ـ زوجها ـ يعضّ ويخمش بأظافره. كانت جُرْسة وقف الجميع يتفرّجون عليها بسعادة غامرة، والكلبة «القامطة» على الكلب تجهد في التخلّص منه حتّى نجحت أخيراً. فصفّق الجميع وهلّلوا، بينما انسحب الكلب الزّوج خارجاً من الحارة ولم يره أحد بعدها.

* * *

نما الكلب وكبر وأصبح شكله مهيباً، وألفه الجميع ولم يكن ينبح إلّا على وافد غريب. وأمّا هذه المرّة فحين رآه وقف فجأة، ولمّا اقترب منه كعادته قطع عليه الطّريق متحفّزاً، ودون أن يمهله قفز قفزة واحدة ناحية ساقه اليسرى وأمسك بها. دهمته المفاجأة، ولم يبد أيّة حركة وفي ظنّه أنّها مداعَبة ثقيلة. لكنّه أطبق بفكّيه على السّاق الّتي حاول شدّها فتمزّق البنطلون وأفلتت السّاق للحظة، لكن الأنياب سرعان ما أطبقت مرّة أخرى وانغرزت في اللّحم بينما كانت زمجرة الكلب المكتومة تتحوّل إلى زئير، وعيناه تبرقان باحمرار مخيف. وشعر بألم وسخونة يجتاحان جسده، فصرخ وشدّ بقوّة فتحرّرت ساقه. ركع على الأرض يتحسّسها وامتلأت أصابعه بالدّماء. نظر إلى الكلب فوجده يتحفّز مرّة أخرى للوثوب، فالتقط حجراً أشهره في يده وأخذ يتراجع بظهره في بطء بينما عيناه مثبتتان على الكلب الّذي كان يتراجع هو أيضاً.. حتّى دخلا كلٌّ إلى مسكنه.

* * *

حين شمّر كانت مِزَق البنطلون غارقة بالدّماء. وحين رأت زوجته ذلك صرخت وخبطت بكفّ يدها على صدرها وجرت. أحضرت ماءً

غسلت به الجرح فظهرت صورة واضحة لأنياب الفكّين العلوي والسّفلي محفورة في بطن السّاق حُفراً غائرة عميقة. أحضرت قطناً وشاشاً وقامت بتطهير الجرح وربطه. لم يؤلمه الجرح أوّل الأمر، لكنّه في المساء اجتاحته سخونة مصحوبة بألم لا يطاق، وتكون «حيل» على هيئة «بلحة» أعلى فخذه ظهر واضحاً جليّاً، ولم يعد يقوى على السّير. في هذه اللّيلة لم ينم، وعند الفجر انسلّت زوجته من جانبه واتّجهت إلى منزل الجيران. النّاس مازالوا نائمين، لكنّها سوف توقظهم، فللضّرورة أحكامها، والرّجل سوف يفلت من بين يديها، ولابدّ لها من الحصول على بعض الشّعر من الكلب.. هكذا يفعلون من قديم الأزل، هي وصفة مجرّبة، لم تخب قط، ولابدّ أن يتم ذلك في الفجر قبل أن تطلع شمس اليوم الأوّل على العضّ، وإلاّ فلا فائدة..

* * *

كانت البوّابة الحديديّة مغلقة بالجنزير والقفل، وفي الضّوء الواهي رأته رابضاً في حوش المنزل واضعاً رأسه بين ساقيه الأماميّتين فارداً جسده الفارغ. لم يكن نائماً، فقد شعر بوجودها فرفع رأسه تجاهها. رأت عينين حمراوين تلمعان، ورأت لسانه يتدلّى من بين فكّيه، ولمحت لعابه يسيل على جانب فمه، وسمعت لهاثه. قرعت جرس الباب فخرجت بعد مدّة صاحبة البيت: «خير يا أختي كفى الله الشّرّ؟». فتحت الباب وأدخلتها. لمحتها تنظر إلى الكلب فقالت: «لا تخافي منه فهو لا يعضّ». تعجّبت وقصّت عليها ما حدث. هزّت صاحبة البيت رأسها في دهشة وعقّبت قائلة إنّها المرّة الأولى، وعلى كلّ حال فهو ليس مسعوراً. ثمّ أحضرت مقصّاً وركعت أمام الكلب وجزّت قطعة كبيرة من شعره دون أن يلتفت إليها أو يتحرّك. ها هي أخيراً قد حصلت على حفنة الشّعر فلتكمل الباقي سريعاً. وضعت بعض الزّيت على النّار حتّى انقدح، رمت فيه حفنة الشّعر فسمعت طشّة وشمّت رائحة دهن حيواني. تركت المزيج حتّى برد وصبّته في خرقة وضعتها على السّاق. قالت: «بالشّفا، وصفة مجرّبة». غفا قليلاً فاطمأنّت. حلم أنّه أكل ولده وزوجته فقام مفزوعاً يبحث عنهما. أحضرت زوجته كوب ماء وناولته إيّاه. صرخ: ابعدي الماء عنّي، ابتعدي. نظرت إليه في دهشة فرأت عينيه حمراوين، وفكّه السّفليّ قد تدلّى وبرز لسانه، أمّا لهاثه فقد أصبح مسموعاً الآن. تحسّست جبينه فوجدته ملتهباً. حاولت عمل كمّادات من الماء البارد، لكن حالة الذّعر الّتي اجتاحته حين رأى الماء حالت دون ذلك. كان ينكمش وينظر إليها في توسُّل لتبتعد عنه. وقد أرجعت ذلك للحمّى الّتي تملّكت جسده.

في المساء خلعت عنه كلّ ثيابه، مسحت جسده بالخلّ واللّيمون، كشفت عن الجرح فشمّت رائحة كريهة وقد مال إلى السّواد مكوّناً ماءً مصفرّاً له رائحة لا تطاق. ربطت الجرح مرّة أخرى. في نومها سمعت سعاله، كان يشبه عواء كلب صغير، ورأت لسانه يتدلّى من بين فكّيه، وسمعت صوت لهاثه فلم تصدّق. كان يزوم بينما لعابه يسيل على جانب الفم المفتوح، وبدت ملامح الوجه أكثر غرابة. لكن الشّيء المؤكّد أنّها رأت تلك الملامح قبل الآن. فتح عينيه فوجدها تنظر إليه فسألها عن ولده. نادته فجاء جارياً ومحاولاً اللّعب معه كعادته. لكنّه لم يستجب، فقط ضمّه إلى حضنه وأخذ يلعق وجهه. لحظتها، تذكّرت متى وأين، رأت هذا الوجه من قبل، هو نفس الوجه الرّابض في حوش الجيران. خافت ومدّت يدها وأخذت الولد من بين ذراعيه. نظر إليها بعينيه الحمراوين وخرج صوته مزمجراً. وخيّل إليها أنّها سمعت نباحاً، جرت إلى الحجرة الأخرى وأغلقتها بينما صوت عوائه لم ينقطع طوال اللّيل.

في الصّباح قامت وفتحت الباب بهدوء وتجوّلت داخل الشّقّة. بحثت عنه فلم تجده. نظرت من الشّرفة فلمحته أمام منزل الجيران، كان رابضاً على الأرض فارداً يديه وقدميه. ورأت الكلب رابضاً أمامه أيضاً، كان كلاهما ينظر في عيني الآخر وينبح بشدّة، وكان كلاهما مستعدّاً للانقضاض على الآخر، بينما عواؤهما يعلو ويعلو.

القاهرة